العربة السماوية

إي إم فورستر



ترجمة سارة طه علام

العربة السماوية

تأليف
إي إم فورستر

ترجمة
سارة طه علام

مراجعة
سارة ياقوت



العربة السماوية

إي إم فورستر

The Celestial Omnibus

E. M. Forster

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٩٩ ٥

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١١.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

١

لطالما احتار الصبي الذي يُقيم في أجاثوكس لودج، رقم ٢٨ طريق باكنجهام بارك، سوربيتون، في أمر اللافتة القديمة الموجودة على الجهة المقابِلة لمنزله. سأل والدته عنها، فأجابت أنها مَزحة، مَزحة سخيفة، قام بها بعض الشباب المشاغبين منذ سنوات عديدة، وأنه ينبغي على الشرطة إزالتها. فقد كان هناك شيئان غريبان في هذه اللافتة؛ أولًا: أنها تشير إلى زُقاق مسدود، وثانيًا: أنها كان مكتوبًا عليها بطلاء باهت: «إلى الجنة».

سألها قائلًا: «أي نوع من الشباب كانوا؟»

«أظن أن والدك أخبرني أن أحدهم كان يكتب الشعر، وفُصِل من الجامعة ونزلت به مصائب أخرى. لكن ذلك حدث منذ وقتٍ طويل. يجب أن تسأل والدك عنه. سيقول الشيء نفسه، إن هذه اللافتة وُضعت على سبيل المزاح.»

«إذن فهي لا تعني أي شيء على الإطلاق؟»

أرسلَته إلى الطابق العلوي ليرتدي أفضل ملابسه؛ لأن آل بونز كانوا قادمين لتناول الشاي، وكان هو مَن سيقدِّم صينية الكعك.

بينما كان يجاهد لرفع بنطلونه الذي ضاق عليه، خطر له أنَّ سؤال السيد بونز عن اللافتة ليس فكرةً سيئة. فعلى الرغم من طيبة والده الشديدة، فقد كان يضحك عليه دائمًا، بل ينفجر ضحكًا كلما طرح هو أو أي طفل آخر سؤالًا أو تحدَّث. لكنَّ السيد بونز كان جادًّا وطيبًا في الوقت نفسه. كان لديه منزل جميل ويُعير الناس كتبه، وكان وكيلًا للكنيسة، ومرشَّحًا لمجلس المقاطعة؛ لقد تبرَّع للمكتبة الحرة بمبالغ سخية، وترأَّس الجمعية الأدبية، وكان يستضيف أعضاءً في البرلمان في منزله — خلاصة القول إنه ربما كان أكثر الأشخاص حكمةً على قيد الحياة.

لكن حتى السيد بونز لم يستطع تقديم أي تفسير آخر سوى أن اللافتة كانت مجرد مزحة، قام بها شخص اسمه شيلي.

صاحت الأم قائلة: «بالطبع! لقد أخبرتك بذلك يا عزيزي. كان هذا هو اسم الشاب.»

سأل السيد بونز: «ألم تسمع به شيلي من قبل؟»

قال الصبي وهو يُطرق خجلًا: «نعم لم أسمع به.»

«ألَا تمتلكون كتبًا من تأليف الشاعر بيرسي شيلي في منزلكم؟»

صاحت السيدة بانفعال شديد: «بلى لدينا، يا عزيزي السيد بونز، لسنا جَهَلَةً إلى هذه الدرجة. لدينا كتابان على الأقل له. أحدهما كان هدية زفاف، والآخر نسخة أصغر حجمًا، موضوعة في إحدى الغرف الإضافية.»

قال السيد بونز وهو يبتسم ابتسامةً هادئة: «أظن أن لدينا سبعة كتب لشيلي.» ثم نَفَض فُتات الكعكة عن بطنه، ونهض هو وابنته ليغادرا.

امتثالًا لغمزةٍ من والدته، رافقهما الصبي حتى بوابة الحديقة، وعندما غادرا لم يعُد إلى المنزل على الفور، بل أخذ يُحدِّق قليلًا في طرفَي طريق باكنجهام بارك.

عاش والداه على الجانب الأيمن من الطريق. ينخفض مستوى المنازل فجأةً بعد المنزل رقم ٣٩؛ إذ لم يكن للمنزل رقم ٦٤ مدخل منفصل للخدم حتى. لكن في تلك اللحظة، بدا الطريق بأكمله جميلًا نوعًا ما؛ إذ كانت الشمس قد غربت من فورها في بهاء، وطمس الغسقُ بوهجه الزعفراني التفاوتاتِ بين المنازل. غرَّدت الطيور الصغيرة، وصفَّر القطار الذي يحمل الساعين إلى أرزاقهم صافرته العالية المنغَّمة وهو يمر في مسار السكة الحديدية بين المرتفعات، ذلك المسار الرائع الذي استأثر بكل جمال حي سوربيتون، فاكتسى بحُسن أشجار التنوب والبتولا الفضية وزهرة الربيع وكأنه أحد وديان جبال الألب. كان هذا المسار هو أولَ ما حرَّك رغبة الصبي، رغبةً في اختبار شيء مختلف، لم يدرِ ما هو، لكنَّ رغبته هذه تستيقظ كلما أضاءت الشمس الأشياء — كما هو الحال هذا المساء — وتظل تجيش بداخله حتى يستحوذ على جسده شعورٌ غريب، يُثير فيه رغبةً في البكاء أحيانًا. أمَّا هذا المساء، فقد أقدم على تصرُّف أكثر اندفاعًا؛ إذ تسلَّل عابرًا الطريق نحو اللافتة وبدأ يركض في الزقاق المسدود.

يمتد الزقاق بين أسوار عالية، وهي أسوار حديقتَي «إيفانهو» و«بيل فيستا» على التوالي. تنبعث رائحة كريهة طفيفة على طول الطريق، ولا يكاد يبلغ طولُ الزقاق والمنعطف عند نهايته عشرين ياردة. لا عجب إذن أن الصبي سرعان ما توقَّف. «أريد أن أركل شيلي

ذلك»، هكذا صاح ونظر بكسل إلى ورقة أُلصِقَت على الحائط. كانت ورقةً غريبة نوعًا ما، وقرأها بعنايةٍ قبل أن يعود أدراجه. وهذا ما قرأه:

إس وسي آر سي سي

تغيير في الخدمة.

نظرًا لغياب الرعاية، اضطُرَّت الشركة آسِفةً إلى تعليق الخدمة على مدار الساعة، والإبقاء فقط على خدمة:

حافلات الشروق والغروب،

التي سوف تعمل كالمعتاد. نأمل أن يُساند الجمهور هذا الإجراء الذي يهدف إلى راحتهم. وللتحفيز الإضافي، ستقوم الشركة الآن، ولأول مرة بإصدار

تذاكر ذَهاب وعودة!

(صالحة ليوم واحد فقط)، ويمكن الحصول عليها من السائق. نُذكِّر الركاب مرةً أخرى بأنه لا تصدُر أي تذاكر على الجانب الآخر، وأن الشركة لن تأخذ أي شكاوى بهذا الخصوص بعين الاعتبار. كما لن تكون الشركة مسئولةً عن أي إهمال أو غباء من جانب الركاب، ولا عن العواصف الثلجية، أو الصواعق، أو فقدان التذاكر، أو أي قضاء وقدر.

وهذا تنويه إرشادي للركاب.

لم يسبق للصبي أن رأى هذا الإشعار من قبل، ولم يمكنه تخيُّل إلى أين تذهب العربة. إس كانت بالطبع اختصارًا لسوربيتون، وآر سي سي كانت اختصارًا لشركة سيارات الطريق. ولكن ماذا كان يعني حرف سي الأول؟ ربما يُشير إلى «كومب وميدن»، أو من المحتَمَل إلى كلمة «مدينة». ومع ذلك، لا يمكنها أن تأمل في التنافس مع شركة «ساوث ويسترن». كان الأمر برُمَّته، كما رأى الصبي، يفتقر افتقارًا شديدًا إلى الاحترافية. لماذا لا تصدر تذاكر على الجانب الآخر؟ وفي أي ساعة تتحرك العربة! ثم أدرك أنه ما لم يكن الإشعار خدعة، فلا بد أن حافلةً كانت تتحرَّك تمامًا في اللحظة التي ودَّع فيها بونز وابنته. نظر إلى الأرض عبر عتمة الغسق الآخِذة في التزايد، فرأى ما قد يكون أو لا يكون أثر عجلات. لكن لم يخرج شيء من الزقاق. ولم يسبق له أن رأى حافلةً تسير في أي وقت في طريق باكنجهام بارك. لا، لا بد أنها خدعة، مثل اللافتة، والحكايات الخيالية، والأحلام التي يستيقظ على إثرها فجأةً ليلًا. وخرج من الزقاق متنهِّدًا فإذا به يجد نفسه في حضن والده.

لكم ضحك والده! صاح قائلًا: «أوه يا بوبسي المسكين! يا عزيزي الصغير! يا صغيري الذي يعتقد أنه سيتوجَّه إلى الجنة!» ثم ظهرت والدته، وهي تهتزُّ من شدة الضحك أيضًا،

على درجات سُلَّم أجاثوكس لودج. ولهثت قائلة: «كفى يا بوب! لا تكن مشاغبًا هكذا! أوه، ستقتلني! أوه، اترك الصبي وشأنه!»

ولكن المزاح بشأن هذا استمرَّ طوال ذلك المساء. وناشد الأب ابنه أن يأخذه معه. هل كانت نزهةً متعبة للغاية؟ هل يحتاج المرء إلى مسح حذائه على ممسحة الأرجل قبل أن يدخل؟ وذهب الصبي إلى الفراش وهو يشعر بالوهن والألم، وكان ممتنًّا لشيءٍ واحد فقط، هو أنه لم يقُل كلمةً واحدة عن العربة. لقد كانت خدعة، لكنها ما انفكَّت تزداد واقعيةً في أحلامه، بينما باتت شوارع سوربيتون، التي كان يرى العربة تمرُّ فيها، وهمًا وظِلالًا. وفي الصباح الباكر استيقظ وهو يصيح؛ إذ رأى لمحةً من وِجهة العربة.

أشعل عود ثقاب، فأضاء نورُه ساعَتَه والروزنامة، فعرف أن الوقت المتبقي حتى شروق الشمس هو نصف ساعة. كان الظلام دامسًا؛ فقد نزل الضباب من لندن أثناء الليل، ولفَّ شوارع سوربيتون بأكملها. ومع ذلك، نهض وارتدى ملابسه، عازمًا على تحديد أيهما الحقيقي: العربة أم الشوارع. فكَّر في نفسه قائلًا: «في الحالتَين سأكون أحمق إذا لم أعرف الحقيقة.» وسرعان ما كان يسير مرتجفًا في الطريق أسفل مصباح الغاز الذي يقف على مدخل الزقاق.

كان دخول الزقاق نفسه يتطلَّب بعض الشجاعة. كان الزقاق غارقًا في الظلام، وأدرك في تلك اللحظة أنه يستحيل أن يكون محطةً أخيرة لأي حافلة. ولولا أنه سمع صوت شرطي يقترب خلال الضباب ما كان ليُقدِم على محاولة دخوله أبدًا. في اللحظة التالية، حاول دون جدوى. لا شيء. لا شيء سوى زقاق مسدود وصبي شديد الحُمق يُحدِّق في أرضيته القذرة. لقد كانت خدعة. «سأُخبر أبي وأمي»، هكذا قرَّر. «أنا أستحق ذلك. أستحق أن يعلما بالأمر. أنا شديد الحُمق والغباء.» ثم عاد إلى بوابة أجاثوكس لودج.

عند البوابة تذكَّر أن ساعته متقدِّمة عن التوقيت الفعلي. لم تُشرِق الشمس بعد، لن تشرق إلا بعد دقيقتَين. «لتعطِ العربة كل الفرص الممكنة»، هكذا فكَّر بسخرية، وعاد إلى الزقاق.

ولكنه وجد العربة هناك.

٢

كان للحافلة حصانان يجرانها، يتصاعد من جانبَيهما البخار من أثر الرحلة التي قطعاها؛ وأضاء مصباحاها الضخمان جدران الزقاق خلال الضباب، فحوَّل خيوط العنكبوت والطحالب العفنة إلى أنسجة عجيبة وكأنها تنتمي إلى عالم سحري. كان السائق يلتحف عباءة. وكان يواجه الجدار الذي يسد الزقاق؛ كيف تمكَّن السائق من قيادة العربة إلى داخل الزقاق بحرص شديد وهدوء تام؟ ظل ذلك واحدًا من الألغاز العديدة التي لم يتبيَّنها الصبي البتة. كما لم يستطع البتة أن يتخيَّل كيف سيقودها خروجًا منه.

ارتجف صوت الصبي عبر الهواء البني العطن وهو يقول: «من فضلك، هل هذه هي العربة؟»

قال السائق دون أن يلتفت: «أجل، إنها العربة.» سادت لحظة صمت. مرَّ الشرطي من أمام مدخل الزقاق وهو يسعل. اختبأ الصبي في الظلام؛ لأنه لم يرغب في أن يُكشَف أمره. كان متيقنًا من أن ذلك الرجل قرصان، لا يمكن أن يكون إلا كذلك؛ إذ لا يمكن لأيِّ شخص آخر أن يسافر إلى هذه الأماكن الغريبة وفي مثل هذه الأوقات الغريبة.

سأل الصبي وهو يُحاول أن يبدوَ رابط الجأش: «متى ستتحرَّك تقريبًا؟»

«عند شروق الشمس.»

«ما المسافة التي ستقطعها؟»

«الطريق بأكمله.»

«وهل يمكنني الحصول على تذكرة عودة أعود بها إلى هنا؟»

«أجل.»

قال الصبي: «أظن أنني سآتي معك.» لم يُجِب السائق. لا بد أن الشمس أشرقت؛ لأنه حرَّر مكابح العربة كي ينطلق. وما إن قفز الصبي داخل العربة حتى انطلقت على الفور.

كيف؟ هل استدارت العربة؟ لم تكن هناك مساحة كافية. هل تحرَّكت إلى الأمام؟ كان الجدار يسد طريقها. ومع ذلك كانت تتحرك بسرعة فائقة عبر الضباب الذي تحوَّل من اللون البني إلى الأصفر. أثقلت الصبيَّ فكرةُ الاستمتاع بسرير دافئ ووجبة إفطار ساخنة وجعلته يشعر بالوهن. تمنى لو لم يأتِ. لم يكن والداه ليوافقا على ذهابه. كان سيعود إليهما لو لم يجعل الطقس هذا مستحيلًا. شعر بعُزلة مُروِّعة؛ فقد كان الراكبَ الوحيد. وكانت العربة، على الرغم من تصميمها الجيد، باردةً وعطنة نوعًا ما. لفَّ معطفه حوله، وبينما كان يفعل ذلك، تحسَّس جيبه مصادفة. كان فارغًا. لقد نسي محفظته.

صاح الصبي قائلًا: «توقف! توقف!» ولأنه مهذب، ألقى نظرةً سريعة على لوحة التنبيهات المطلية لكي ينادي السائق باسمه. «سيد براون! توقف، توقف أرجوك!»

لم يتوقَّف السيد براون، لكنه فتح نافذةً صغيرة ونظر إلى الصبي. فوجئ الصبي بملامح وجهه؛ إذ بدا لطيفًا ومتواضعًا للغاية.

«سيد براون، لقد نسيت محفظتي. ليس معي بنس واحد. لا أستطيع دفع ثمن التذكرة. هل تقبل أن تأخذ ساعتي من فضلك؟ أنا في ورطة كبيرة حقًّا.»

قال السائق: «لا يمكن شراء تذاكر هذا الخط، سواء كانت تذكرة ذهاب فقط أم تذكرة ذهاب وعودة، بأي عملة أرضية عادية. وآلاتُ قياس الزمن حتى لو بلغت من الدقة حدَّ قياسِ زمنِ يقظةِ الإمبراطور شارلمان، أو زمن نوم لورا مُلهِمة بترارك، لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تتحوَّل إلى حلوى الجنة التي تسحر سيربيروس، كلبَ الحراسة السماوي الرقيق الأليف!» ثم ناول الصبي التذكرة اللازمة، وبينما كان الصبي يشكره، تابع السائق قائلًا: «أعلم جيدًا أن الألقاب الشرفية من بواعث الزهو والخيلاء. لكن لا حرج في استخدامها على سبيل الدعابة، كما أنها مفيدة نوعًا ما في عالم مليء بالأسماء المتشابهة؛ إذ تساعد على تمييز هذا الرجل من ذاك. لذا، تذكَّرني باسم السير توماس براون.»

«أنت «سير»؟ أوه، أنا آسف لم أكن أعرف!» لقد سمع الصبي عن هؤلاء السائقين النبلاء. «إنه لطف منك أن تعطيني التذكرة مجانًا. ولكن إذا واصلت فِعل ذلك فكيف ستحقِّق أي ربح من العربة؟»

قال: «إنها لا تُحقِّق ربحًا. ليس ذلك هو الغرض منها. هناك العديد من العيوب في حافلتي؛ فهي مصنوعة صناعةً شديدة الدقة والتعقيد من أنواع مختلفة من الأخشاب الغريبة، ووسائد مقاعدها تُدغدغ الرغبة في المعرفة بدلًا من أن تبعث على الراحة، ولا تتغذَّى

خيولي على معارف الحاضر اليانعة، إنما على المعارف القديمة التي جفَّت منابعها. ولكن تحقيق الربح! هذا عيب لم يكن فيها قطُّ.»

قال الصبي بيأس: «أعتذر مرةً أخرى.» بدا السير توماس حزينًا؛ إذ خشي أن يكون قد أحزن الصبي، ولو للحظة. دعا الصبي ليأتي ويجلس بجانبه على الصندوق، وواصلا الرحلة معًا عبر الضباب، الذي بدأ يتغيَّر لونه من الأصفر إلى الأبيض. لم تكن هناك منازل على جانبَي الطريق، لا بد إذن أن هذه المنطقة إما «بيوتني هيث» وإما «ويمبلدون كومون».

«هل كنت سائقًا دائمًا؟»

«لقد كنت طبيبًا في السابق.»

«لماذا تركت الطب؟ ألم تكن ماهرًا؟»

«لم أحقِّق نجاحًا كبيرًا وأنا معالج للأجساد، والكثير من مرضاي ماتوا قبلي. ولكن وأنا معالج للروح، قد نجحت بما يفوق ما كنت أطمح إليه وما أستحقُّه. وعلى الرغم من أن علاجاتي ليست أفضل أو أنجع من تلك التي يُعِدها الآخرون، فإن الكئوس المُغْوِية التي كنت أقدِّم علاجاتي تلك فيها هي التي تُغرِي الأرواح المضطربة في كثير من الأحيان لتشرب منها وتهنأ.»

تمتم الصبي قائلًا: «الأرواح المضطربة؟ عندما تغرب الشمس خلف الأشجار فيسري في كل أوصالك فجأةً شعور غريب، فهل هذا من أعراض اضطراب الروح؟»

«هل اختبرتَه؟»

«أجل.»

وبعد صمت قصير، أخبر الصبيَّ شيئًا يسيرًا عن وجهتهما. لكنهما لم يتحدثا كثيرًا؛ لأن الصبي، عندما يُحب شخصًا ما، كان يصمت في حضرته أكثر ممَّا يتكلم، واكتشف أن السير توماس براون مثله، وكذلك العديد من الآخرين الذين سيتعرَّف إليهم. لكنه أخبره عن الشاب شيلي، الذي أصبح شخصًا مشهورًا للغاية، ويمتلك حافلته الخاصة، وعن بعض السائقين الآخرين الذين يعملون في خدمة الشركة. في غضون ذلك، أصبح الضوء أقوى، على الرغم من أن الضباب لم ينقشع. صار أقربَ إلى الشبورة منه إلى الضباب، وفي بعض الأحيان كان يمر أمامهم بسرعة، كما لو كان جزءًا من سحابة. لقد كانوا يرتفعون أيضًا ارتفاعًا مُحيِّرًا للغاية؛ لأكثر من ساعتَين ظلَّت الخيول تشد الطوق، حتى لو كانوا يصعدون تل ريتشموند، كان ينبغي أن يكونوا قد وصلوا إلى قمته منذ مدة طويلة. ربما كان جبل إبسوم، أو حتى تلال نورث داونز؛ ومع ذلك، بدا الهواء أقوى من الهواء الذي يهب في كلتا المنطقتين. أما اسم وجهتهما، فلم يذكر عنه السير توماس براون شيئًا.

ثم دوَّى صوت تحطُّم، بووم!

قال الصبي: «إنه الرعد، يا إلهي! وهو ليس ببعيدٍ أيضًا. استمِع إلى صدى صوته! إنه أشبه بصوت جبال تتحطَّم.»

خطرت له أفكار غير واضحة بشأن أبيه وأمه. رآهما جالسَين يأكلان النقانق ويُنصتان إلى العاصفة. رأى مكانه الفارغ. ثم سيعقب ذلك تساؤلات، ومخاوف، ونظريات، ونِكات، ومواساة. كانا يتوقَّعان عودته على الغداء. لم يكن سيعود لتناول الغداء، ولا لاحتساء الشاي، ولكنه كان سيعود لتناول العشاء؛ ومن ثَم لن يغيب عن المدرسة إلا يومًا واحدًا. لو كانت محفظته معه لاشترى لهما الهدايا، ولكنه لم يكن ليعرف أي نوع من الهدايا يشتريه لهما.

تكرَّر صوت التحطم، بووم!

تزامن دوي الرعد مع البرق. واهتزَّت السحابة كما لو كانت حية، ومرَّت سريعًا من جانبهما شرائط مُمزَّقة من الضباب. سأل السير توماس براون الصبي: «هل أنت خائف؟»

«وهل ثمة ما يدعو إلى الخوف؟ ألا يزال أمامنا مسافة طويلة؟»

توقَّفت خيول العربة في اللحظة التي انفجرت فيها كرة من النار مُحدِثةً ضجيجًا رنانًا حادًّا يصمُّ الآذان، مثل ضجيج فرن الحِدادة.و تمزَّقت السحابة كلها.

«اسمع أيها السير توماس براون! كلا، أعني انظر، ستتضح الرؤية أخيرًا. لا، أعني أنصت، هذا يبدو مثل قوس قزح!»

خَفَت هزيم الرعد حتى أصبح دَويًّا خافتًا، علا عليه همهمة انتشرت خِلسةً وبانتظام، في منحنًى ظل يتسع دون أن يتغيَّر شكله. وفي منحنيات واسعة امتدَّ قوس قزح من تحت أقدام الخيل إلى الضباب المتلاشي.

«ما أجملَه! ما أجمل ألوانَه! أين سينتهي؟ إنه يُشبه قوس قزح الذي يمكنك المشي عليه. كما في الأحلام.»

امتدَّت الألوان وعلا الصوت. امتدَّ قوس قزح في منحنًى ضخم فصار كالجسر. اندفعت من أسفله بعض السُّحب، واخترق هو بعضها الآخر، وظلَّ يمتد ويتقدَّم إلى الأمام قاهِرًا الظلام، حتى لامس شيئًا يبدو أصلب من أن يكون سحابة.

وقف الصبي وصاح قائلًا: «ما هذا الذي هناك؟ علامَ توقَّف طرَفه الآخر؟»

في ضوء شمس الصباح، برزت قِمة جُرف شاهقةٌ من خلف قوس القزح. أم تُراها قلعة؟ تحركت الخيول. ووطئت قوس القزح.

صرخ الصبي قائلًا: «أوه، انظر! أوه، أنصِت! أتلك كهوف ... أم إنها بوابات؟ أوه، انظر بين تلك الأجراف وتلك الحواف. أرى أُناسًا! أرى أشجارًا!»

همس السير توماس براون: «انظر إلى الأسفل أيضًا. لا تُغفِل نهر أشيرون المقدس.»

نظر الصبي إلى الأسفل متجاوزًا ألسنة قوس قزح التي لامست عجلات حافلتهم. كما اتضح الوادي أيضًا، كان يتدفَّق فيه نهر سرمدي. اخترق شعاعُ ضوء واحد السحبَ وأضاء بركةً خضراء، وعندما مروا بها رأى ثلاث حوريات يرتفعْنَ إلى سطح البركة وهن يغنين، ويلعبْنَ بشيء يلمع كالخاتم.

نادى الصبي: «أنتن يا من أسفل بالماء ...»

أجابت الفتيات: «أنت يا من فوق الجسر ...» انطلقَ صوت موسيقى مفاجئ. «أنت يا من فوق الجسر، حظًّا سعيدًا لك. الحقيقة في الأعماق، والحقيقة بالأعلى.»

«أنتن يا من أسفل بالماء، ماذا تفعلْنَ؟»

أجاب السير توماس براون: «يلهون بما يملكْنَه من ذهب»؛ ووصلت العربة.

٣

شعر الصبي بالخزي. جلس حبيسًا في غرفة الأطفال في أجاثوكس لودج يدرس الشعر عقابًا له. قال والده: «يا بني! يمكنني غفران أي شيء إلا الكذب»، وضربه بالعصا على كفه تأديبًا له، قائلًا مع كل ضربة: «لا يوجد حافلة، ولا سائق، ولا جسر، ولا جبل؛ إنك متهرب من المدرسة، صعلوك، وكاذب.» يمكن لوالده أن يكون شديد الصرامة في بعض الأحيان. كانت والدته قد توسَّلت إليه أن يعتذر. لكنه لم يستطع الاعتذار. لقد كان أعظم يوم في حياته، على الرغم من أنه انتهى بالضرب، ومعاقبته بدراسة الشعر.

عاد في الموعد المحدَّد عند الغروب، ولكن السير توماس براون لم يكن هو قائدَ العربة، بل حورية مرحة للغاية على الرغم من هدوئها. تحدَّثا عن الحافلات، وكذا عن عربات البَرُّوشة المكشوفة الفخمة ذات العجلات الأربع التي يجرُّها حصانان. كم بدا صوتها اللطيف بعيدًا الآن! ومع ذلك، لم يمضِ على تركه إياها في الزقاق سوى ثلاث ساعات تقريبًا.

نادت والدته من خلف الباب: «عزيزي، تعالَ وأحضر معك كتاب الشعر.»

نزل فوجد السيد بونز في غرفة التدخين مع والده. لقد كانت حفلة عشاء.

قال والده مُتجهِّمًا: «ها قد أتى الرحَّالة العظيم! الفتى الذي طاف بالعربة فوق أقواس القزح، بينما تُغنِّي له الحوريات.» ثم ضحك سعيدًا بطُرفته.

قال السيد بونز وهو يبتسم: «على أي حال، ورد وصفٌ شبيه بذلك بعض الشيء في أعمال فاجنر. إنه لأمر غريب كيف تجد في عقول جاهلة إلى حدٍّ بعيد ومضات من الحقيقة الفنية. إنها مسألة تُثير اهتمامي. دعني أُدافع عن الجاني. كُلُّنا كنا حالِمين ونحن صغار، أليس كذلك؟»

قالَت والدته: «أترى كم هو لطيف السيد بونز!» بينما قال والده: «حسنًا. ليُلقِ قصيدته وكفى. سيُسافر إلى أختي يوم الثلاثاء، وستُعالجه من تسكُّعه في الأزقَّة.» ثم ضحك ثم قال: «ألقِ قصيدتك.»

استهلَّ الصبي قائلًا: «أقف محاطًا بجهل عظيم.»

ضحك والده مرةً أخرى ضحكةً قوية عالية وقال: «هذه القصيدة عنك يا بني! «أقف محاطًا بجهل عظيم!» لم أكن أعلم أن هؤلاء الشعراء يقولون كلامًا عقلانيًّا. إنه يصفك تمامًا. تفضَّل يا بونز، إنك تُحب الشعر. اجعله يقرؤه بينما سأذهب لأُحضر الويسكي، هل يمكنك فعل ذلك؟»

قال السيد بونز: «أجل، أعطني كتاب شعر كيتس. دعه يقرأ عليَّ شعر كيتس.»

هكذا، تُرك الرجل الحكيم والصبي الجاهل وحدهما في غرفة التدخين.

قال الصبي: «أقف محاطًا بجهل عظيم، أحلم بك وبسيكلادس، كالجالس على الشاطئ يتوق إلى مصادفة تأخذه إلى ...»

«هذا صحيح تمامًا. يزور ماذا؟»

تابع الصبي: «شعاب الدلافين في أعماق البحار»، ثم انفجر في البكاء.

«لماذا تبكي؟»

«لأن ... لأن كل هذه الكلمات التي لم تكن إلا كلامًا مقفًّى من قبل، أمَّا الآن بعد أن عدت، فقد أصبحت تصفني.»

وضع السيد بونز كتاب الشعر. أثار الأمرُ اهتمامه أكثر ممَّا توقَّع. صاح مندهشًا: «أنت؟ هذه القصيدة تصفك أنت؟»

«أجل، واسمع الأبيات التالية: «أجل، هنالك نور على شواطئ الظُّلمة، وخُضرة بكر في أحضان الجبال الشواهق.» إن الأمر كذلك يا سيدي. كل هذه الأشياء صحيحة.»

قال السيد بونز مغمضًا عينَيه: «لم أشكَّ في ذلك قطُّ.»

«أنت ... إذن تصدقني؟ إنك تصدق كلَّ ما قلتُه عن العربة والسائق والعاصفة وتذكرة العودة التي حصلت عليها مجانًا و...»

«كفى، كفى! لا مزيد من قصصك الخيالية يا بني. كنت أقصد أنني لم أشك قطُّ في الحقيقة الجوهرية للشعر. يومًا ما، عندما تقرأ أكثر، ستفهم ما أقصده.»

«لكن يا سيد بونز، إنها حقيقة. هنالك نور على شواطئ الظلمة. لقد رأيته قادمًا. نور وريح.»

٣

قال السيد بونز: «هذا كلام فارغ.»

«ليتني توقَّفت! لقد حاولْنَ إغرائي لأفعل. طلبْنَ مني أن أتخلَّى عن تذكرتي؛ لأنك لا تستطيع العودة إذا فقدت تذكرتك. لقد ناديْنَني من النهر لأتخلَّى عنها، وقد أغراني ذلك بالفعل؛ لأنني لم أشعر من قبلُ بسعادة كتلك التي شعرت بها بين تلك المنحدرات، لكنني فكَّرت في أمي وأبي، وأنه يجب عليَّ إحضارهما. ولكنهما رفضا القدوم، على الرغم من أن بداية الطريق على الجهة المقابلة من منزلنا. لقد حدث ما حذَّرني منه الأشخاصُ بالأعلى بالضبط، ولم يُصدِّقني السيد بونز مثل الآخرين. لقد ضُربت بالعصا، ولن أرى هذا الجبل مرةً أخرى.»

اعتدل السيد بونز في جِلسته على الكرسي فجأة، وقال: «ما هذا الذي قلته عني؟»

«لقد أخبرتهم عنك وعن ذكائك، وما لديك من كمٍّ هائل من الكتب، فقالوا: «السيد بونز لن يُصدِّقك قطعًا».»

«كلام فارغ وهراء يا صديقي الصغير. لقد أصبحتَ وقحًا. أنا … حسنًا، سأُسوِّي الأمر. لن أقول كلمةً واحدة لوالدك. سأُعالجك بنفسي. سآتي مساء الغد إلى هنا وسآخذك في نزهة على الأقدام، وعند غروب الشمس سنذهب إلى هذا الزقاق على الجهة المقابلة وسنبحث عن حافلتك، أيها الصبي الأخرق.»

اكتسى وجهه بالجدية؛ إذ لم يرتبك الصبي، بل ظلَّ يقفز في أرجاء الغرفة وهو يُدندن: «مرحى! مرحى! لقد أخبرتهم أنك ستُصدِّقني. سنركب العربة معًا ونطوف فوق قوس قزح. لقد أخبرتُهم أنك ستأتي.» تُرى هل يمكن أن يكون هناك أي شيء حقيقي في هذه القصة؟ فاجنر؟ كيتس؟ شيلي؟ السير توماس براون؟ بالتأكيد كانت مسألةً مثيرة للاهتمام.

وفي مساء الغد، على الرغم من هطول المطر، لم يُغفل السيد بونز زيارة منزل أجاثوكس.

كان الصبي جاهزًا متقد الحماس، ويقفز فرحًا بطريقة أربكت السيد بونز. سلكا منعطفًا نحو طريق باكنجهام بارك، ثم تسلَّلا إلى الزقاق بعد أن لاحظا أن لا أحد يراهما. لا عجب أنهما وجدا العربة أمامهما؛ إذ كانت الشمس تغرب في تلك اللحظة.

صاح السيد بونز: «يا للسماء! يا إلهي الرحيم!»

لم تكن العربة هي نفسها التي استقلَّها الصبي أول مرة، ولا حتى تلك التي عاد فيها. كان يجرُّها ثلاثة أحصنة: حصان أسود، وآخر رمادي، والثالث أبيض، وكان الرمادي هو

أجملَها. كان السائق، الذي التفتَ عند ذكر السماء والإله الرحيم، رجلًا شاحب الوجه ذا فكَّين مُخيفَين وعينَين غائرتَين. ما إن رآه السيد بونز حتى أطلق صرخةً وكأنما يعرفه، وبدأ يرتجف ارتجافًا شديدًا.

قفز الصبي داخل العربة.

صاح السيد بونز قائلًا: «هل هذا ممكن؟ هل المستحيل ممكن؟»

قال الصبي: «سيدي، تعالَ يا سيدي. إنها حافلة رائعة. أوه، ها هو ذا اسمه، دان ثم اسمٌ ما غير واضح.»

وقفز السيد بونز داخل العربة أيضًا. صفعت هبَّةٌ قوية من الريح باب العربة على الفور، وأدَّت الهزة القوية إلى انسدال جميع ستائرها؛ فقد كانت الزنبركات التي تُثبِّتها في مكانها ضعيفةً للغاية.

«دان ... أرني. يا إلهي الرحيم! إننا نتحرك.»

هتف الصبي بسعادة: «مرحى!»

ارتبك السيد بونز. لم يكن ينوي أن يتعرَّض للاختطاف. لم يتمكن من العثور على مقبض الباب، ولا من رفع الستائر. كانت العربة مظلمةً تمامًا، وحين أشعل عود ثقاب، كان الليل قد حل في الخارج أيضًا. كانوا يتحركون بسرعة.

قال السيد بونز وهو يتفقَّد العربة من الداخل: «إنها مغامَرة غريبة لا تُنسى»، كانت كبيرةً وواسعة ومصنوعة بحرفية شديدة، وكان كل جزء فيها يتوافق تمامًا مع باقي الأجزاء الأخرى. كان مكتوبًا فوق الباب (الذي كان مقبضه بالخارج) بالإيطالية: «أيها الداخلون، اطرحوا عنكم كل أمل»، بأخطاء إملائية صحَّحها السيد بونز. كان يتحدث بوجل وكأنما يقف في كنيسة. في هذه الأثناء، نادى الصبي سائقَ العربة الشاحب كالجثة ليطلب تذكرتَيْ ذهاب وعودة. سلَّمهما السائق إلى الصبي دون أن ينطق كلمةً واحدة. غطَّى السيد بونز وجهه بيده وارتجف مرةً أخرى. وعندما أُغلقت النافذة الصغيرة التي تفصل بينهما وبين السائق، همس للصبي قائلًا: «هل تعرف مَن هذا؟ إنه المستحيل بعينه.»

«حسنًا، أنا لا أُحبُّه بقدر السير توماس براون، ومع ذلك لن أفاجأ إذا كان أفضل منه.»

«أفضل منه؟» وضرب الأرض بقدمه غاضبًا. «لقد قمت بالمصادفة بأعظم اكتشاف في القرن، وكل ما يمكنك قوله هو أن هذا الرجل أفضل. هل تتذكَّر تلك المجلَّدات الموجودة في مكتبتي ذات الأغلفة الجلدية المطبوعة عليها زنابق حمراء؟ هذا الرجل — اجلس بلا حراك؛ فأنا أحمل لك أخبارًا مذهلة! — هذا الرجل هو من ألَّفها.»

٣

جلس الصبي ساكنًا تمامًا. ثم سأل بعد صمت مُهذَّب: «تُرى هل سنقابل السيدة جامب؟»

«من؟»

«السيدة جامب والسيدة هاريس. أنا أُحب السيدة هاريس. لقد قابلتهما بالمصادفة. لقد نُقِلَت صناديق مُتعلقات السيدة جامب فوق قوس قزح نقلًا سيئًا للغاية. فقد انخلعت قيعان الصناديق، وسقطت اثنتان من القطع الدائرية من هيكل سريرها وانقلبَتا في النهر.»

هكذا صاح السيد بونز بغضبٍ عارم: «هناك يجلس الرجل الذي ألَّف مجلداتي ذات الورق السميك! وأنت تُحدِّثني عن ديكنز والسيدة جامب؟»

اعتذر الصبي قائلًا: «أعرف السيدة جامب جيدًا. فلم يسعني إلا أن أشعر بالسعادة لرؤيتها. لقد تعرَّفتُ صوتَها. كانت تُخبر السيدة هاريس عن السيدة بريج.»

«هل قضيت اليوم كله في صحبتها الراقية؟»

«كلا، لقد شاركت في سباق. التقيت رجلًا أخذني إلى مضمار سباق بعيد. أنت تجري، ويوجد دلافين هناك في البحر.»

«بالتأكيد. هل تتذكر اسم الرجل؟»

«اسمه أخيل. كلا، لقد لقيت أخيل لاحقًا. اسمه توم جونز.»

تنهَّد السيد بونز بقوة. قال: «حسنًا يا بني، لقد أسأتَ التصرُّف كثيرًا. تخيَّل أن تُتاح تلك الفرصة لمثقف! المثقف كان سيعرف كل هذه الشخصيات وسيعرف ماذا يقول لكلٍّ منها. ولم يكن ليُضيع وقته مع السيدة جامب ولا توم جونز. ما كان سيقنع إلا بإبداعات هوميروس وشيكسبير والرجل الذي يقود حافلتنا الآن. لم يكن ليتسابق. كان سيطرح أسئلةً ذكية.»

قال الصبي بتواضع: «لكن يا سيد بونز، أنت هذا الشخص المثقف. لقد أخبرتهم بذلك.»

«صحيح، صحيح، وأرجوك ألَّا تُلحِق بي العار عندما نصل. لا تُثرثر. لا تركض. ابقَ قريبًا مني، ولا تتحدَّث أبدًا إلى هؤلاء الخالدين إلا إذا تحدَّثوا إليك. أجل، وأعطني تذاكر الذهاب والعودة. فأنت ستضيعها.»

سلَّمه الصبي التذاكر، لكنه شعر ببعض الحزن والمرارة. ففي نهاية المطاف، هو من وجد الطريق إلى هذا المكان. شق عليه أن يتعرَّض للتكذيب أولًا ثم الوعظ. في هذه الأثناء، توقَّف المطر، وتسلَّل ضوء القمر إلى العربة عبر الشقوق الموجودة في الستائر.

صاح الصبي: «ولكن كيف يمكن أن يكون هناك قوس قزح؟»

قال السيد بونز بغضب: «إنك تُشتِّت انتباهي. أرغب في تأمل هذا الجمال. لكم أتمنى أن لو كان رفيقي في تلك الرحلة شخصًا وقورًا حساسًا.»

عضَّ الفتى على شفته. واتخذ مائة قرار حكيم. قرَّر أن يقلِّد السيد بونز طوال الزيارة. لن يضحك، أو يركض، أو يغنِّي، أو يفعل أيًّا من الأشياء المبتذلة التي لا بد أنها أثارت اشمئزاز أصدقائه الجدد في المرة السابقة. وسيحرص بشدة على نُطق أسمائهم على نحو صحيح، وعلى تذكُّر من منهم يعرف الآخر. لم يكن أخيل يعرف توم جونز، على الأقل هذا ما قاله السيد بونز. قال أيضًا إن دوقة مالفي أكبر سنًّا من السيدة جامب. سيكون وَقورًا ومتحفظًا ومتزمتًا. لن يقول أبدًا إنه يُحب أي شخص. ومع ذلك، عندما لامست الريح رأسه عَرَضًا، ذهبت في مهبها كل هذه القرارات الحكيمة؛ لأن العربة كانت قد وصلت إلى قمة تلةٍ مقمرة، ورأى الفجوة، ومن خلالها رأى المنحدرات القديمة الحالمة المغمورة سفوحها في النهر السرمدي. صاح: «ها هو ذا الجبل! استمع إلى النغمة الجديدة في الماء! انظر إلى نيران المخيم في الوديان»، أجاب السيد بونز بعد نظرة سريعة: «الماء؟ نيران المخيم؟ هذا هراء سخيف. اصمت. لا يوجد شيء على الإطلاق.»

ولكن حين خفض بصره رأى قوس قزح يتشكَّل، لم يتشكَّل من ضوء الشمس والعواصف، بل من ضوء القمر ورذاذ النهر. وطئته الخيول الثلاثة. لقد اعتقد أنه أجمل قوس قزح رآه، لكنه لم يجرؤ على قول ذلك؛ إذ قال السيد بونز إنه لا يوجد شيء هناك. أطلَّ من النافذة بعد أن انفتحت، وردَّد اللحن المتصاعد من المياه النائمة.

قال السيد بونز فجأة: «إنها الافتتاحية الموسيقية لأوبرا «ذهب الراين». من علَّمك هذا اللحن؟» نظر هو أيضًا من النافذة. ثم أتى بتصرُّف غريب للغاية. فأطلق صرخةً مختنِقة، وسقط على أرضية العربة. كان يتلوَّى ويركل. وامتُقع وجهُه.

سأله الصبي: «هل يُصيبك الجسر بالدوار؟»

شهِق السيد بونز قائلًا: «دوار! أرغب في العودة. أخبِر السائق.»

لكن السائق هزَّ رأسه رفضًا.

قال الصبي: «لقد أوشكنا على الوصول. إنهم نائمون. هل أُناديهم؟ سيسعدون أيَّما سعادة برؤيتك؛ لأنني جهَّزتهم لهذا.»

أنَّ السيدُ بونز. تحرَّكت الخيول فوق قوس قزح القمري، الذي كان يتلاشى خلف عجلاتهم. كم كان الليل ساكنًا! تُرى من سيكون الحارس عند البوابة؟

صرخ الصبي ناسيًا مرةً أخرى كم القرارات التي اتخذها بتهذيب سلوكه: «أنا قادم. لقد عدت — إنه أنا، الصبي.»

تعالى صوت يقول: «لقد عاد الصبي»، فردَّدت أصوات أخرى: «عاد الصبي.»

«لقد أحضرت السيد بونز معي.»

ساد الصمت.

«كان ينبغي أن أقول إن السيد بونز هو من أحضرني معه.»

ساد صمت مطبق.

«من يقف حارسًا؟»

«أخيل.»

وعلى الممر الصخري، بالقرب من منتهى جسر قوس قزح، رأى شابًّا يحمل درعًا بديعة.

«سيد بونز، إنه أخيل، وهو مسلح.»

قال السيد بونز: «أريد أن أعود.»

تلاشى الجزء الأخير المتبقي من قوس قزح، وصرَّت العجلات على صخرة حية، وانفتح باب العربة على مصراعيه. قفز الصبي خارجًا — ولم يستطع المقاومة — ووثب لمقابلة المحارب الذي انحنى فجأةً وحمل الصبي ورفعه على درعه.

صاح الصبي قائلًا: «أخيل! أنزِلني؛ فأنا جاهل وسوقي، ويجب أن أنتظر السيد بونز الذي أخبرتك عنه بالأمس.»

لكن أخيل رفعه عاليًا. جثم الصبي على الدرع البديعة، على الأبطال والمدن المحترقة، على الكروم المنقوشة بالذهب، على كل عشق غالٍ، على كل بهجة انتصار، على صورة الجبل الذي اكتشفه، محاطًا بنهر سرمدي كما الجبل الفعلي. احتجَّ الصبي قائلًا: «كلا، كلا، أنا لا أستحق. السيد بونز هو الذي يجب أن يكون هنا بالأعلى.»

لكن السيد بونز كان يتأوَّه، فهلَّل أخيل صائحًا: «قف منتصبًا على درعي!»

«سيدي، لم أقصد أن أقف! شيء ما جعلني أقف. سيدي، لماذا تنتظر؟ ها هو أخيل العظيم، أنت تعرفه.»

صرخ السيد بونز: «لا أرى أحدًا. لا أرى شيئًا. أريد أن أعود.» ثم صرخ قائلًا للسائق: «أنقذني! دعني أُنهِ رحلتي في عربتك. لقد بجَّلتك. لقد اقتبست كلماتك. لقد جمعت أعمالك في مجلدات مُغلَّفة بالجلد الفاخر. أعدني إلى عالمي.»

أجاب السائق: «أنا الوسيلة لا الغاية. أنا الغذاء لا الحياة. قف بنفسك كما وقف ذلك الصبي. لا يمكنني إنقاذك. فالشعر روح، ومن يعبده ينبغي أن يكون مؤمنًا به إيمانًا حقيقيًّا.»

لم يستطع السيد بونز المقاومة، فزحف خارجًا من العربة الجميلة. ظهر وجهه وهو يُحدِّق فاغرًا فمَه بشكل مُروِّع. تبعته يداه، واحدة تُمسك بدرَج العربة، والأخرى يضرب بها في الهواء. ثم ظهرت كتفاه، وصدره، وبطنه. وهو يصرخ قائلًا: «أرى لندن»، ثم سقط؛ سقط على الصخرة الصلبة المقمرة، هوى فيها كما لو كانت ماءً، ابتلعته واختفى، ولم يعُد الصبي يراه.

«أين سقطتَ يا سيد بونز؟ ها هو موكب يصل بالموسيقى والمشاعل تشريفًا لك. ها هم الرجال والنساء الذين تعرف أسماءهم قادمون. الجبل والنهر مستيقظان، وفوق مضمار السباق يوقِظ البحر تلك الدلافين، وكل هذا من أجلك. إنهم يريدونك أن ...»

شعر بأوراق نضرة تُلامِس جبهته. لقد توَّجه أحدهم.

ورد الخبر الآتي في صحيفة «كينجستون جازيت»، و«سوربيتون تايمز»، و«باينز بارك أوبسريفير».

عُثِر على جثة السيد سيبتيموس بونز مُشوَّهةً تشويهًا مُريعًا بالقرب من مصانع الغاز في بيرموندسي. احتوت جيوب المتوفَّى على محفظة بها جنيهات ذهبية، وعلبة سيجار فضية، وقاموس نُطق صغير أنيق، وتذكرتَي حافلة. يبدو أن الرجل التعيس الحظ قد أُلقيَ من ارتفاع كبير. يُشتبه أن تكون جريمة قتل، ولا تزال السلطات تجري تحقيقًا موسعًا.


هنداوي